جلال الدين السيوطي

أعـــلام المؤرخـــين

الإمام الحافظ المؤرخ
جلال الدين السيوخي

هو إمام المتأخرين، وعلم أعلام الدين، وخاتمة الحفاظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكربن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي، ولقب رحمه الله بجلال الدين. وكنيته أبو الفضل.

مولده: ولد رحمه الله بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة هجرية، فقد ولد رحمه الله في بيت عرف بالعلم والادب وسمو المكانة وعلو المنزلة، ولا عجب فقد كان أبوه، علمًا من الأعلام وفقيها من فقهاء الشافعية المرموقين، فقد ولي رحمه الله في مستهل حياته منصب القضاء في أسيوط ثم انتقل إلى مصر حيث أسند إليه بها منصب الإفتاء على مذهب الإمام الشافعي. وتوفي ولده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر وقد وصل من حفظ القرآن إذ ذاك إلى سورة التحريم ولكن الله تعالى قد كلأه بعنايته وأحاطه برعايته فقيض له العلامة الكمال ابن الهمام، فكان رحمه الله يرعاه ويتابعه في تحفيظ القرآن وذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

نشأ رحمه الله نشأة علمية منذ نعومة أظفاره، فقد كان ولده رحمه الله شديد الحرص على توجيهه الوجهة الصالحة إذ كان يحفظ القرآن الكريم في صغره ويستصحبه إلى دور العلم ومجالس القضاء ودروس الفقهاء وسماع الحديث. ويذكر المؤرخون الذين ترجموا له رحمه الله أن أباه قد طلب من الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني

صاحب الفتح أن يدعو له بالبركة والتوفيق، وكان رحمه الله يرى في الحافظ ابن حجر مثله الأعلى وكان يترسم خطاه ويحذو حذوه فيما بعد حتى قيل: إنه شرب من ماء زمزم بنية أن يجعله الله مثل ابن حجر فاستجاب الله سبحانه وتعالى له فكان من أكبر الحفاظ.

وكان السيوطي رحمه الله شديد الذكاء، قوي الذاكرة، حفظ القرآن وهو دون ثماني سنين حفظ عمدة الأحكام وشرحه لابن دقيق العيد ثم حفظ منهاج الإمام النووي في فقه الشافعية ثم منهاج البيضاوي في الأصول ثم ألفية ابن مالك في النحو ثم تفسير البيضاوي. وعرض ذلك رحمه الله على طائفة من مشايخ الإسلام مثل البلقيني وعز الدين الحنبلي وشيخ الأقصراني فأجازه هؤلاء وغيرهم. ولم يدع رحمه الله من فروع المعرفة ولا نوعًا من أنواع العلم إلا وقد أدلى فيه بدلو وتلقاه عند أهله، فأخذ الفقه عن شيخ الشيوخ سراج الدين البلقيني وقد لازمه إلى أن توفي فلازم من بعده ولده علم الدين. أخذ الفرائض عن فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي، ولازم الشرف المناوي أبا زكريا محمد بن عبد الرؤوف شارح الجامع الصغير. وأخذ العلوم العربية عن الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي وكتب له تقريظًا على شرح ألفية ابن مالك. ولزم العلامة محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة فأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني وأخذ عن جلال الدين المحلي وعن المعز الكناني أحمد بن إبراهيم الحنبلي، وحضر على الشيخ سيف الدين الحنفي دروسًا عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشية عليه وتلخيص المفتاح في البلاغة، وقد أجيز بتدريس في مستهل سنة ست وستين وثمانمائة، أي في سن الخامسة عشرة وأخذ أيضًا عن المجد بن السباع وعبد العزيز الوقائي الميقات، وأخذ

الطب عن محمد بن إبراهيم الدواني الرومي. والمتتبع لنشأة السيوطي يجد أنه قد أخذ الكثير من العلوم عن الكثير من المشايخ. وقد ذكر بعض أهل العلم ممن ترجموا له أن شيوخه قد وصلوا نحو ستمائة ولا غرابة في ذلك ولا عجب فإن السيوطي قد عاش حياته يأخذ العلم حيث وجده وعن كل من يلقاه وأنه أكثر من السفر والترحال في سبيل تحصيل العلم ورواية الحديث. وذكر أيضا في بعض الروايات أنهم مائة وخمسون شيخًا وشيخة وفي بعضها قارب عددهم الستمائة على ما ذكر آنفا.

قيامه بالتدريس:

كان الإمام السيوطي رحمه الله خير مؤدبي عصره وأفضل مدرسيه إذ اشتهر بالبراعة في الشرح والروعة في الإملاء ومن ثم شدت إليه الرحال من كل مكان فكان رحمه الله يدرس العربية في سن مبكرة إذ كان عمره وقت إجازته بالتدريس خمسه عشر عامًا فقط وهي قصيرة من أعمار العلماء الأعلام ثم شرع أيضًا في تدريس الفقة وإملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة أي بعد مباشرته تدريس العربية بنحو ست سنوات ثم شرع بعد ذلك يزاول التدريس والإملاء، في مختلف العلوم وشتى الفنون فقال متحدثا عن نفسه متحدثا بنعمة الله أنه رزق التبحر في سبعة علوم: التفسير والفقه والحديث والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة.

وكان رحمه الله يقول أيضا: إنه بلغ الاجتهاد إذ قال: وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد وبحمد الله تعالى أقول ذلك متحدثًا بنعمة الله تعالى لا فخر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفًا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوحها وأجوبتها والموازنة بين

اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله.

مصنفاته:

لم يدع السيوطي فنًا إلا وكتب فيه، وبدأ في التأليف في سن مبكرة إذ ذكر المترجمون له أنه شرع في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة هجرية وكان أول شيء ألفه في التفسير وهو تفسير للاستعاذة والبسملة وقد عرضه على شيخ الإسلام علم الدين البلقيني فأجازه وكتب له تقريظًا حسنًا، ثم توالى بعد ذلك تأليفه. وقد اختلف الباحثون في عدد المصنفات التي أثرى بها الحافظ الجلال السيوطي المكتبة الإسلامية فمنهم من يرى أنها تبلغ إحدى وستين وخمسمائة وهو ما ذهب إليه فلوجل وأما ما ذهب إليه بروكلمان فقد عد له خمسة عشر وأربعمائة كتاب.

ولقد حدثنا رجل فاضل أنه ألف كتابًا للحافظ السيوطي تكلم عنه وترجم له وعد مصنفاته حتى بلغت ستاً وألف كتاب وهذا إن دل إنما يدل على سعة تبحره كما ذكرنا. وهنا أورد بعض مصنفات هذا الإمام الجليل. فمن أهم تصانيفه على سبيل المثال لا الحصر:

- إسعاف المبطأ برجال الموطأ.
- الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء.
- الأشباه والنظائر.
- الإتقان في علوم القرآن.
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير.
- الجامع الكبير.
- الحاوي للفتاوى.

- الحبائك في أخبار الملائك.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة.
- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج.
- الروض الأنيق في فضل الصديق.
- العرف الوردي في أخبار المهدي.
- الغرر في فضائل عمر.
- ألفية السيوطي.
- الكاوي على تاريخ السخاوي (ألفه بسبب خصومته مع السخاوي).
- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة.
- المَدْرَج إلى المُدْرَج.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها.
- المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب.
- أسباب ورود الحديث.
- أسرار ترتيب القرآن.
- أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب.
- إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين.
- إعراب القرآن.
- إلقام الحجر لمن زكى ساب أبي بكر وعمر.

- تاريخ الخلفاء.
- تحذير الخواص من أحاديث القصاص.
- تحفة الأبرار بنكت الأذكار النووية.
- تدريب الراوى في شرح تقريب النواوي.
- تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك.
- تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش.
- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك.
- تنبيه الغبيّ في تبرئة ابن عربي.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
- در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة.
- ذم المكس.
- شرح السيوطي على سنن النسائي.
- صفة صاحب الذوق السليم.
- طبقات الحفّاظ.
- طبقات المفسرين.
- عقود الجمان في علم المعاني والبيان.
- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث.
- عين الإصابة في معرفة الصحابة.
- كشف المغطي في شرح الموطأ.
- لب اللباب في تحرير الأنساب.

- لباب الحديث.
- لباب النقول في أسباب النزول.
- ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين.
- مشتهى العقول في منتهى النقول.
- مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين.
- مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة.
- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع.
- الفارق بين المصنف والسارق وهو أول كتاب فقهي حول الملكية الفكرية التي لم يتعرف عليها العالم إلا في عام ١٨٨٦م، من خلال اتفاقية برن لحقوق المؤلف.

وغير ذلك مما حوته كتب التراجم.

ثناء العلماء عليه:

لم أجد ترجم لهذا الإمام إلا وقد شهد له بالبراعة والتبحر، ولقد أثنى عليه شيوخه وأقرانه وتلاميذه والعلماء من بعده ممن قرأ كتبه. فيقول أبو الحسنات محمد محمد عبد الحلي اللكنوي في حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطي: وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة وفرائد شريفة تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره وأنه حقيق بأن يعد من مجددي الملة المحمدية في بدء المائة العاشرة وآخر التاسعة

كما ادعاه بنفسه وشهد بكونه حفيًّا به ممن جاء بعده كعلي القارئ المكي في المرآة.

انقطاعه عن التدريس والقضاء والإفتاء:

قضى السيوطي فترة غير قصيرة في خصومات مع عدد من علماء عصره، كان ميدانها الحملات الشرسة في النقد اللاذع في الترجمة المتبادلة، ومن خصومه: البرهان الكركي، وأحمد بن محمد القسطلاني، والشمس الجوجري، غير أن أشد خصوماته وأعنفها كانت مع شمس الدين السخاوي، الذي اتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته، واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للناس بها ونسبتها إلى نفسه. ولم يقف السيوطي مكتوف الأيدي في هذه الحملات، بل دافع عن نفسه بحماسة بالغة وكان من عادته أن يدعم موقفه وقراره بوثيقة ذات طابع أدبي، فألف رسالة في الرد على السخاوي، اسمها " مقامة الكاوي في الرد على السخاوي " نسب إليه فيها تزوير التاريخ، وأكل لحوم العلماء والقضاة ومشايخ الإسلام. وكان لهذه العلاقة المضطربة بينه وبين بعض علماء عصره، وما تعرض له من اعتداء في الخانقاه البيبرسية أثر في اعتزال الإفتاء والتدريس والحياة العامة ولزوم بيته في روضة المقياس على النيل، وهو في الأربعين من عمره، وألف بمناسبة اعتزاله رسالة أسماها " المقامة اللؤلؤية "، ورسالة " التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس ". وقد تنبه بعض خصوم السيوطي إلى خطئهم فيما صوبوه إلى هذا العالم الجليل من سهام في النقد والتجريح وخصومات ظالمة، فأعلنوا عن خطئهم، وفي مقدمتهم الشيخ القسطلاني الذي أراد

أن يسترضي هذا العالم الجليل الذي لزم بيته وعزف عن لقاء الناس، فتوجه إليه حافيًا معتذرًا، غير أن هذا الأمر لم يجعل السيوطي يقطع عزلته ويعود إلى الناس، ولكنه استمر في تفرغه للعبادة والتأليف.

اعتزال السلاطين:

عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطانًا مملوكيًّا، وكانت علاقته بهم متحفظة، وطابعها العام المقاطعة وإن كان ثمة لقاء بينه وبينهم، وضع نفسه في مكانته التي يستحقها، وسلك معهم سلوك العلماء الأتقياء، فإذا لم يقع سلوكه منهم موقع الرضا قاطعهم وتجاهلهم، فقد ذهب يومًا للقاء السلطان الأشرف قايتباي وعلى رأسه الطيلسان - عمامة طويلة - فعاتبه البعض، فأنشأ رسالة في تبرير سلوكه أطلق عليها " الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان ". وفي سلطنة طومان باي الأول حاول هذا السلطان الفتك بالسيوطي، لكن هذا العالم هجر بيته في جزيرة الروضة واختفى فترة حتى عُزل هذا السلطان. وكان بعض الأمراء يأتون لزيارته، ويقدمون له الأموال والهدايا النفيسة، فيردها ولا يقبل من أحد شيئًا، ورفض مرات عديدة دعوة السلطان لمقابلته، وألف في ذلك كتابًا أسماه " ما وراء الأساطين في عدم التردد على السلاطين ".

ريادة ثقافية في عصر العلماء:

كان السيوطي من أبرز معالم الحركة العلمية والدينية والأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، حيث

ملأ نشاطه العلمي في التأليف مختلف الفروع في ذلك الزمان من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وطبقات ونحو ولغة وأدب وغيرها، فقد كان موسوعي الثقافة والاطلاع. وقد أعانه على كثرة تأليفه انقطاعه التام للعمل وهو في سن الأربعين حتى وفاته، وثراء مكتبته وغزارة علمه وكثرة شيوخه ورحلاته، وسرعة كتابته، فقد اتسع عمره التأليفي لمدة ٤٥ سنة، حيث بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، وانقطع له مدة ٢٢ عامًا متواصلة، ولو وُزع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليوم الواحد ٤٠ ورقة، على أن القسم الأكبر من تأليفه كان جمعًا وتلخيصًا وتذييلا على مؤلفات غيره، أما نصيبه من الإبداع الذاتي فجدّ قليل. وقد تمنى السيوطي أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة لعلمه الغزير، فيقول: " إني ترجيت من نعم الله وفضله أن أكون المبعوث على هذه المائة، لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم ". وزادت مؤلفات السيوطي على الثلاثمائة كتاب ورسالة، عدّ له بروكلمان ٤١٥ مؤلفًا، وأحصى له " حاجي خليفة " في كتابه " كشف الظنون " حوالي ٥٧٦ مؤلفًا، ووصل بها البعض كابن إياس إلى ٦٠٠ مؤلف. ومن مؤلفاته في علوم القرآن والتفسير: " الإتقان في علوم القرآن "، و " متشابه القرآن "، و " الإكليل في استنباط التنزيل "، و " مفاتح الغيب في التفسير "، و " طبقات المفسرين "، و " الألفية في القراءات العشر ".

أما الحديث وعلومه، فكان السيوطي يحفظ مائتي ألف حديث كما روى عن نفسه، وكان مغرمًا بجمع الحديث واستقصائه لذلك ألف

عشرات الكتب في هذا المجال، يشتمل الواحد منها على بضعة أجزاء، وفي أحيان أخرى لا يزيد عن بضع صفحات.. ومن كتبه: " إسعاف المبطأ في رجال الموطأ "، و " تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك "، و " جمع الجوامع "، و " الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة "، و " المنتقى من شعب الإيمان للبيهقي "، و " أسماء المدلسين "، و " آداب الفتيا "، و " طبقات الحفاظ ". وفي الفقه ألف " الأشباه والنظائر في فقه الإمام الشافعي "، و " الحاوي في الفتاوي "، و " الجامع في الفرائض " و " تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع ". وفي اللغة وعلومها كان له فيها أكثر من مائة كتاب ورسالة منها: " المزهر في اللغة "، و " الأشباه والنظائر في اللغة "، و " الاقتراح في النحو "، و " التوشيح على التوضيح "، و " المهذب فيما ورد في القرآن من المعرب "، و " البهجة المرضية في شرح ألفية ابن مالك ". وفي ميدان البديع كان له: " عقود الجمان في علم المعاني والبيان "، و " الجمع والتفريق في شرح النظم البديع "، و " فتح الجليل للعبد الذليل ". وفي التاريخ والطبقات ألف أكثر من ٥٥ كتابًا ورسالة يأتي في مقدمتها: " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة "، و " تاريخ الخلفاء "، و " الشماريخ في علم التاريخ "، و " تاريخ الملك الأشرف قايتباي "، و " عين الإصابة في معرفة الصحابة "، و " بغية الوعاة في طبقات النحاة "، و " نظم العقيان في أعيان الأعيان "، و " در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة "، و " طبقات الأصوليين ". ومن مؤلفاته الأخرى الطريفة: " منهل اللطايف في الكنافة والقطايف "، و " الرحمة في الطب والحكمة "، و " الفارق بين المؤلف والسارق "، و " الفتاش على القشاش "، و " الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ". وقد شاءت إرادة الله أن تحتفظ المكتبة العربية والإسلامية بأغلب تراث الإمام السيوطي، وأن تطبع غالبية كتبه القيمة وينهل من علمه الكثيرون.

وفاته ورثاؤه:

توفي رضي الله عنه في سحر ليلة الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وعشرة وتسعمائة في منزله بروضة المقياس عن عمر بلغ اثنين وستين عاما وكان له مشهد عظيم، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة، وصلي عليه بدمشق بالجامع الأموي يوم الجمعة، وقيل: أخذ الناس قميصه وقبعته فاشترى بعض الناس قميصه من الناس بخمسة دنانير للتبرك به وباع قبعته بثلاثة دنانير لذلك أيضا.

وقد رثاه عبد الباسط بن خليل الحنفي بقوله:

مات جلال الدين غيث الورى ::: مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى ::: ومرشد الضال بنفع يعود
فيا عيون اهملي بعده ::: ويا قلوب انفطري بالوقود
وأظلمي يا دنيا إذ حق ذا ::: بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للضوء بأن ينطفى ::: وحق للقائم فيك القعود
وحق للنور بأن يختفى ::: ولليالي البيض أن تبقى سود
وحق للناس بأن يحزنوا ::: بل حق أن كل بنفس يجود
وحق للأجيال خسرًا وأن ::: تطوى السماء طيًّا كيوم الوعود
وأن يفور الماء والأرض أن ::: تميد وعم المصاب الوجود
مصيبة حلت فحلت بنا ::: وأرثت نار اشتعال الوجود
صبرنا الله عليها وأولاده ::: نعيمًا حل دار الخلود [1]

* * *

(١) انظر مقدمة كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م، وكتاب روضة الطالبين وعمدة المفتين للنووي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية، وكتاب جلال الدين السيوطي لمصطفى الشكعة: - ط مطبعة الحلبي ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، وكتاب الحافظ جلال الدين السيوطي لعبد الحفيظ فرغلي القرني: - سلسلة أعلام العرب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٠.